الإِسْلَامُ وَعِلْمُ النَّفْسِ

◆ قراءة: لينا السقر[1]

■ خلاصة

يتناول علم النفس السلوك الإنساني من منظور شامل، يركّز على استجابة الفرد للمثيرات المختلفة في حياته. وينقسم إلى جوانب إدراكية ووجدانية. كما وتتمثّل إحدى القضايا الأساس في علم النفس بتحديد العوامل التي تؤثّر على هذا السلوك، سواء أكانت فطرية أم مكتسبة. يعتمد هذا التحديد على فهم العلاقة بين الوراثة والبيئة. علاوة على ذلك، تُصنّف السلوكيات إلى سلوكيات سويّة وغير سويّة، بناءً على مدى توافقها مع المعايير المجتمعية أو الخُلُقية.

في هذا السياق، يعزّز التصوّر الإسلامي فكرة التوازن بين العقل والشهوة في تحديد السلوك السوي؛ إذ يُنظر إلى سلوك الإنسان من خلال تصنيفات تربط بين الجوانب النفسية والفكرية، بما في ذلك السلوك العبادي والخُلُقي.

أما فيما يتعلّق بالأمراض النفسية، يعرض الإسلام العلاج من خلال التوبة والوعي الروحي، مشيراً إلى أهمية العوامل الدينية والروحية في تحقيق التوازن النفسي. في المقابل، تعتمد المناهج الغربية على استراتيجيات علاجية متعدّدة، مثل العلاج التحليلي والسلوكي، التي تركّز على التأثيرات النفسية والاجتماعية لعلاج الاضطرابات. وبذلك، يتجلّى الفرق بين الرؤيتين في فهم الإنسان وعلاجه؛ حيث يسعى التصوّر الإسلامي إلى تحقيق توازن داخلي من خلال تقوية الروابط الروحية والخُلُقية.

هذا ما تناوله الكتاب، بين أيدينا، بطريقة أكاديمية بسيطة، وبدليل النص القرآني والإسلامي.

الكلمات المفتاحية: علم النفس، العقل، التصوّر الإسلامي، السلوك، الأصول النفسية، النيّة، النصّ الإسلامي.

---

١ - مترجمة، من سوريا.

Islam, Psychology

◆ **Reviewed by: Mrs. Lina Saqer**
Syrian translator.

Abstract

Psychology examines human behavior from a comprehensive perspective, focusing on an individual's responses to various stimuli in their life. It is divided into cognitive and emotional aspects. One of the main issues in psychology is identifying the factors that influence behavior, whether they are innate or acquired. This determination relies on understanding the relationship between heredity and the environment. Moreover, behaviors are classified as either normal or abnormal, based on their alignment with societal or moral standards. In this context, the Islamic perspective emphasizes the balance between the intellect and desires in determining normal behavior. Human behavior is viewed through classifications that link psychological and intellectual aspects, including worship and moral conduct.

Regarding mental illnesses, Islam presents treatment through repentance and spiritual awareness, highlighting the importance of religious and spiritual factors in achieving psychological balance. In contrast, Western approaches rely on various therapeutic strategies, such as analytical and behavioral therapies, which focus on the psychological and social effects in treating disorders. The difference between the two perspectives is evident in their understanding of human nature and treatment, with the Islamic perspective seeking internal balance by strengthening spiritual and moral connections.

Keywords:

Psychology, Mind, Islamic Perspective, Behavior, Psychological Foundations, Intention, Islamic Texts.

بطاقة الكتاب

عنوان الكتاب: الإسلام وعلم النفس

مؤلف الكتاب: محمود البستاني

دار النشر: مجمع البحوث الإسلامية للدراسات والنشر

سنة النشر: عام ١٩٩٢م.

عدد الصفحات: ٣٠٤.

اللغة الأصلية للكتاب: اللغة العربية.

مقدّمة

يُعدّ علم النفس من العلوم التي تساهم في فهم السلوك البشري، وتفسير الظواهر النفسية والوجدانية التي يتعرّض لها الإنسان في مختلف مراحل حياته. ومن هذا المنطلق، يُعتبر فهم السلوك البشري في إطار علمي إسلامي أداة مُهمّة لتوجيه النظر إلى التفاعل بين الإنسان ومحيطه، ليس فقط من خلال منطق المعطيات البيولوجية والبيئية، بل من خلال منظور روحي يعكس القيم الإسلامية. يتناول الكتاب الذي بين أيدينا هذا الموضوع من خلال دمج علم النفس مع المفاهيم الإسلامية، مقدّمًا رؤية شمولية عن الأصول النفسية للسلوك الإنساني وتأثيرات البيئة والوراثة على الشخصية.

يغطّي الكتاب عددًا من المواضيع النفسية الأساس، بدءًا من أصول السلوك البشري بين الغرائز الفطرية والبيئة المحيطة، وصولاً إلى مراحل النمو النفسي، التي يمرّ بها الفرد منذ الطفولة حتى مرحلة النضج. كما يستعرض تأثير التربية الإسلامية في تشكيل السلوك الاجتماعي والفكري، مُبرزًا الدور الفعّال للتوجيه الروحي والخُلُقي في بناء الشخصية السوية.

يتبنّى الكتاب -أيضًا- التصوّر الإسلامي في فهم الأمراض النفسية وعلاجها، مبرزًا كيفية ربط الصحة النفسية بالعبادة والطاعة، واستخدام التوبة آليّةً علاجية للأمراض النفسية. وتُعدّ مقارنة هذه التصوّرات مع أساليب العلاج النفسي المعاصر، مثل العلاج السلوكي والتحليلي، جزءًا مُهمًّا من الكتاب الذي يسلّط الضوء على الفرق بين الرؤى الإسلامية والغربية في معالجة المسائل النفسية.

عرض الكتاب

يتناول الكتاب علم النفس والسلوك الإنساني من منظور علمي إسلامي؛ حيث يركّز على كيفية استجابة الإنسان للمثيرات المختلفة في الحياة. ويوضّح كيف ينقسم السلوك البشري إلى جوانب إدراكية ووجدانية، ويستعرض تأثير البيئة والوراثة على هذه الجوانب. كما يعقد مقارنة بين التصوّر العلمي الغربي للسلوك، وبين التصوّر الإسلامي الذي يربط العمليات النفسية بمفاهيم العبادة والخلافة.

يبدأ بتبيين الأصول النفسية للسلوك، والإشارة إلى أهمية الغرائز الفطرية وتأثير البيئة عليها، ويفصل بين السلوك المكتسب والفطري. كما يتحدّث -أيضًا- عن العلاقة بين الوراثة والبيئة، مشيراً إلى تداخل تأثيرهما في تكوين الشخصية وفقًا للتصورات العلمية والإسلامية. كما يتناول بعد ذلك مراحل النمو البشري، من الطفولة المبكرة حتى المرحلة الراشدة، ويبرز كيفية تأثير

البيئة والمجتمع في تشكيل الشخصية خلال هذه المراحل. كما يركّز على دور التربية الإسلامية في بناء شخصية متوازنة من خلال التدريب على السلوكيات الخُلُقية والدينية.

يعرض الكتاب تصوّرًا إسلاميًّا لعلم النفس، الذي لا يقتصر فقط على دراسة العمليات النفسية، بل يشمل -أيضًا- بُعدًا روحيًّا يوجّه الإنسان نحو تحقيق التوازن النفسي والروحي. فمن خلال أربعة أبواب رئيسة. في الفصول الأولى، يتناول الكتاب الأصول النفسية للسلوك بين الغرائز الفطرية والبيئة المكتسبة، ويشرح كيف أنّ التصوّر الإسلامي يقدّم رؤية متكاملة تجمع بين الوراثة والبيئة مع المفاهيم الدينية، مؤكّدًا أنّ الصحّة النفسية لا تتحقّق إلا من خلال التوازن بين العقل والشهوة، وكذلك بين العبادة والسلوك الخُلُقي. يتطرّق الكتاب -أيضًا- إلى المراحل المختلفة للنمو البشري في ضوء التصوّر الإسلامي، مبيّنًا كيف تشكّل التربيةُ والمجتمعُ الشخصيةَ عبر مراحل الطفولة والمراهقة، وصولاً إلى مرحلة النضج.

إذن، يتضمّن الكتاب أربعة أبواب رئيسة، يتفرّع كلّ منها لفصول عدّة، يستعرض خلالها الكاتب علم النفس، وكيف يركّز على دراسة الاستجابة للمثيرات في مجالات النشاط البشري المختلفة، مع مقارنة بين المنهج الأرضي في فهم العمليات النفسية، ومنهج الإسلام الذي يربط العمليات النفسية بمفهومي العبادة والخلافة.

يختتم الكتاب بتقديم رؤية شاملة لأساليب التربية الإسلامية التي تسعى إلى تحقيق توازن نفسي وروحي للفرد، مع التأكيد على أهمّية النية والعبادة في تنظيم السلوك وتحقيق الذات. يعكس الكتاب فكرًا رصينًا في دمج العلوم النفسية مع المبادئ الإسلامية، مستعرضًا السلوك الإنساني المتوازن نفسيًا وروحيًا، لتتحقق السعادة والنجاح على المستويين الدنيوي والأخروي.

الباب الأول: الأصول النفسية للسلوك

الفصـل الأول: الأصول المحرّكة للسلوك

يتناول فكرة السلوك البشري في سياقين نفسي وفطري، ويستعرض الفروق بين الغرائز الفطرية والنفسية، مضافًا إلى كيفية تأثير البيئة على هذه الغرائز. هناك مبدأ بسيط، مفاده أنّ الإنسان يسعى إلى اللذّة ويتجنّب الألم، مثل بحثه عن الطعام لتخفيف الجوع، أو السعي إلى الانتماء الاجتماعي لتجنّب الوحدة. هذا المبدأ يُعتبر من المسلّمات في فهم السلوك البشري، ولكن إذا جرى تجاوز هذا المبدأ، يبدأ البحث في أصول السلوك التي يمكن أنْ تكون فطرية أو مكتسبة.

يناقش كذلك نظريات عدّة عن الغريزة، ويطرح سؤالاً عن إذا ما كانت الغرائز نفسية أو حيوية، والتي ترى أنّ الإنسان يتبع مجموعة من الغرائز، مثل غريزة الطعام أو غريزة القتال، والتي يمكن أنْ تكون فطرية أو مكتسبة. ويُبرز الخطأ في تصنيف الغرائز على أنها مكتسبة فقط، ويشدّد على أنّ السلوك النفسي مثل العدوانية أو المسالمة قد يكون له أصل فطري ولكنه يتأثر بالبيئة الثقافية. وفقًا للإسلام، يؤكد الكاتب أن السلوك البشري لا ينبغي أن يُفهم فقط من خلال الغرائز أو ضدها، بل يجب البحث عن أصل عام يُعبر عن الصراع بين العقل والشهوة.

في النهاية، يذكر أن اللذة العقلية أكثر استقرارًا وفائدة مقارنة باللذة الشهوية، حيث إنَّ الشهوة تسعى إلى الإشباع المطلق، بينما يسعى العقل إلى إشباع نسبي مقيد بالضوابط. يُستنتج أن الإنسان يمتلك القدرة على مقاومة الشهوات من خلال تغليب العقل عليها، كما يظهر في النصوص الإسلامية التي تدعو إلى التحكم في الشهوات وتحقيق توازن بين العقل والجسد.

الفصـل الثاني: الأصول النفسية، بين الوراثة والبيئة

يناقش الكاتب العلاقة بين الوراثة والبيئة في تحديد الأصول النفسية والعقلية للإنسان، وفقًا للمفهوم الإسلامي وعلم النفس المعاصر. يرى التصوّر الإسلامي أنّ الأصول النفسية والعقلية

تتحدّد من خلال مزيج من الوراثة والبيئة؛ حيث توجد «وراثة نقية» تكون مشتركة بين البشر، لكن البيئة والظروف مثل بيئة الرحم تؤثر على تكوين المهارات العقلية.

وتشير التجارب المعاصرة إلى تداخل الوراثة والبيئة، مع تجارب تدعم فرضية الوراثة مثل التشابه بين التوائم في سمات، مثل الحس الإيقاعي. في المقابل، يرفض الاتجاه الشرطي فكرة أنّ المهارات العقلية تكتسب فقط عبر البيئة. تقدّم النصوص الإسلامية توازنًا بين الوراثة والبيئة؛ حيث يشير الإمام الصادق عليه السلام إلى أنّ السمات مثل الذكاء أو السمات النفسية، تُكتسب ولكن يمكن أن تتأثّر بالوراثة الطارئة. يؤكّد على أهمية التنشئة، ويوضّح كيف تؤثّر البيئة على مهارات العقل والشخصية، مستشهدًا بتوصيات دينية عن التغذية النفسية للجنين، وأهمية الزواج الانتقائي في منع انتقال السمات السلبية.

الباب الثاني: الأصول النفسية ومراحل النمو

الفصـل الأول: المرحلة التمهيدية

الوراثة والبيئة هما العاملان الرئيسان في تشكيل السلوك البشري؛ حيث تعمل الدراسات الحديثة على دمج هذين العنصرين لتحسين سلوك الفرد. أكّد المشرع الإسلامي أيضًا على أهمية الوراثة والبيئة في عملية تحسين النسل وتنظيم السلوك البشري، مُقدّمًا توصيات شاملة في هذا الصدد. قدّم الكاتب خمس مراحل لتحسين الوراثة تشمل: الانتقاء الزوجي، وانعقاد النطفة، والحمل، والنفاس، والرضاعة. في مرحلة الانتقاء الزوجي، يُنصح بالزواج من الأشخاص ذوي السمات الخُلُقية الحميدة لتفادي الصفات السلبية، مثل العدوانية. أما في مرحلة انعقاد النطفة، فقد حذّر من ممارسات معينة قد تؤثّر سلبًا على الجنين. في مرحلة الحمل، أُشير إلى أهمية التغذية المناسبة لتأثيرها على سمات الجنين. كذلك، في مرحلة النفاس والرضاعة، ركّز المشرّع على التأثير الكبير للتغذية في تشكيل سمات الطفل الجسدية والنفسية.

الفصـل الثاني: مرحلة الطفولة المبكرة

ينقسم البحث في التصوّر الوضعي عن تطور الشخصية إلى أربع مراحل: الطفولة المبكرة: من الولادة إلى سنّ السابعة، والطفولة المتأخّرة: من سنّ الـ ٧ إلى سنّ الـ ١٤، والمراهقة من سنّ الـ ١٤ إلى الـ ١٧، والمرحلة الراشدة التي تمتد من سنّ الـ ١٧ حتى نهاية الحياة. توافق النصوص الإسلامية هذا التقسيم، لكنها تميّز بين هذه المراحل من خلال رؤيتها الخاصة التي تؤثّر في تكوين الشخصية. بشكل عام، يرتبط النمو الاجتماعي والتعليمي في هذه المراحل بشكل وثيق؛ حيث إنّ المراحل الأولى تظل عرضة للتغيرات بسبب طبيعة النمو العقلي والجسمي للطفل، بينما تستقل المرحلة الراشدة عن التأثيرات المباشرة، ويبدأ فيها تحديد هوية الشخصية بشكل أكثر وعيًا. في الإسلام، تُعتبر مرحلة الطفولة المتأخّرة حاسمة في بناء الشخصية من خلال التدريب على المهارات الجسدية والعقلية، مثل الصلاة، السباحة، والرماية. يُشدّد الكاتب على أهمّية تدريب الطفل في هذه المرحلة، بما في ذلك استخدام العقاب البدني باعتباره وسيلة لضبط السلوك، وتعليمه المسؤولية. يُعتبر العقاب وسيلة تربوية هامة، خاصة في القضايا المتعلّقة بالسلوك الجنسي والتعامل المالي.

الفصـل الثالث: المرحلة الراشدة

في هذا الفصل، تتناول النصوص الإسلامية مرحلة المراهقة في سياق تربوي خاص؛ حيث يجري تحديد بدايتها بمرحلة البلوغ التي تشمل التغييرات الجسدية والعقلية. وفق التصوّر الإسلامي، يُعتبر البلوغ بداية لحمل المسؤولية الخُلُقية؛ حيث يتحمّل الفرد تبعات أفعاله من حيث الثواب والعقاب، سواء في الدنيا أم الآخرة. وتشير النصوص إلى أنّ هذه المرحلة تتميّز بتقلّبات نفسية وعقلية؛ حيث يمرّ المراهق بمرحلة من الاضطراب قبل أنْ يحقّق الاستقلال التامّ في شخصيّته. يُحاول المشرّع الإسلامي التعامل مع هذه التغيرات من خلال استمرارية التدريب وتعلّم السلوك الصحيح، معتبرًا أنّ المراهق بحاجة إلى تعزيز تعليمه في أمور الحلال والحرام.

أما في التصوّر الوضعيّ، فترتبط مرحلة الرشد بالبلوغ العقلي والجسمي بعد سن الـ ١٨، لكن في الإسلام يُربط البلوغ بمسؤولية فردية تبدأ في سن الـ ١٣ أو ١٤. المراهقة في التصوّر الإسلامي ليست مجرد مرحلة بيولوجية، بل هي مرحلة تربوية حاسمة تبنّى فيها الشخصية وتُعزّز الاستقلال، لكن مع الاستمرار في التدريب على الالتزام الخُلُقي والسلوكي.

الباب الثالث: الأصول النفسية وتصنيفها

الفصـل الأول: التصنيفات المتنوّعة للسلوك

في هذا الفصل، يقارن الكاتب بين التصوّر الإسلامي للسلوك مع التصور النفسي الوضعيّ من حيث تصنيف السلوك إلى نوعين: السلوك السوي والشاذ. يعتمد التصور الإسلامي على أساس ثنائي بين العقل والشهوة، حيث يُعتبر السلوك الملتزم بمبادئ الله عزّ وجلّ، ناتجًا عن العقل، بينما يعكس السلوك غير الملتزم تأثير الشهوة. يشمل هذا التفسير الأبعاد الفكرية والنفسية، ويفصل بين السلوك السوي وغير السوي، مشيراً إلى أنّ السلوك الشاذّ في الإسلام، يتعدّى الاضطرابات النفسية ليشمل الكفر والمعصية. يظهر الاختلاف بين التصوّر الإسلامي وعلم النفس الأرضي في تركيز الأول على الاضطراب الفكري مضافًا إلى النفسي؛ حيث يعتبر التصوّر الإسلامي أنّ السلوك غير السوي يمكن أنْ يكون ناتجًا عن انحراف فكري، مثل الكفر، إلى جانب الاضطرابات النفسية والعقلية. هذا يشمل أيضًا تصنيف السلوك الملتزم بالعبادات جزءًا من السلوك السوي، الذي يتجاوز مجرّد الاتزان النفسي، إلى الاتزان الروحي والفكري.

لا يفصل التصنيف الإسلامي للسلوك بين الجوانب النفسية والفكرية، بل يعتبر أنّ السلوك هو وحدة واحدة تجمع بين الأبعاد النفسية والفكرية. وهذا ما يفسّر التصنيفات المختلفة التي جرت الإشارة إليها سابقًا، مثل القائمة التي تتضمّن سمات، مثل الحلم والصبر والعدل، والتي تنتمي

إلى مجالات متعددة من السلوك. فمثلاً، الحلم قد يُعتبر سمة رئيسة في تصنيف يتناول العقل، بينما يأتي فرعًا من العدل في تصنيف آخر يتناول الإيمان مقابل الكفر والنفاق. عند تحليل التصنيفات التي تقدمها هذه القوائم، يمكن ملاحظة التداخل بين السلوك النفسي والفكري: على سبيل المثال، يُعدّ الصبر سمة رئيسة في تصنيف الإيمان، بينما يظهر الحلم فرعًا للصبر في بعض التصنيفات الأخرى. ولا تقتصر هذه التصنيفات فقط على السلوك العبادي أو الفكري، بل تُدرج أيضًا جوانب نفسية، تُعنى بالجوانب الحياتية والتجريبية، كالحالة المزاجية للإنسان. مثلاً: يُظهر المُشرّع الإسلامي اهتمامًا بمفاهيم مثل المرح مقابل الاكتئاب، وكذلك التصنيفات الأخرى المتعلّقة بالطب الجسمي، مثل العلاقة بين الجسم والمزاج. باختصار، يُعتبر التصوّر الإسلامي للسلوك وحدة لا تنفصل بين النفس والفكر، ولا يحتاج إلى تصنيف أحادي للسمات النفسية إلا في حالات محدودة، مثل التمييز بين الأمزجة أو الظواهر النفسية العامة. يعكس هذا المفهوم شمولية الرؤية الإسلامية التي تنظر إلى الإنسان بكامل كيانه، وليس فقط من زاوية واحدة.

الفصل الثاني: سمات الشخصية

يجري التركيز في التصوّر الإسلامي للسمات الذهنية، على أربع مهارات رئيسة، تمثّل عقل الإنسان: الفهم، والذكاء، والحفظ، والعلم. هذه السمات يُعتقد أنّها وراثية، ولكن قد تؤثّر البيئة في تطويرها أو تشويهها. يربط الإسلام هذه السمات بالوظيفة العبادية، مشيراً إلى أنّه لا يمكن أن تكون هذه السمات ذات دلالة إيجابية إلا إذا جرى توظيفها في العبادة.

أما بالنسبة للسمات الداخلية أو المزاجية، فإنّ التصوّر الإسلامي يربطها -أيضًا- بسلوك العبادة، مثل الراحة مقابل التعب، والرجاء مقابل القنوط، مشيراً إلى أنّ الفرح والراحة يمكن أنْ يكونا سمة صحّية عندما يرتبطان بالتوجّه العبادي، بينما يصبحان سلبيّيَن إذا كانا مجرّد مظهر نفسي غير مرتبط بالعبادة.

فيما يتعلّق بالسمات الاجتماعية، يبيّن الكاتب أنّها تشير إلى سلوكيات الشخص في تفاعله مع الآخرين؛ حيث تنبثق هذه السلوكيات من صميم شخصيته.

وأخيراً، تتعلّق السمات الفكرية أو العبادية بالجانب الفكري والديني في الشخصية، وتعكس مدى التزام الشخص بمبادئ دينية وفكرية معينة. يوضّح الكاتب أن الإيمان يعني التوحيد والطاعة تعني الالتزام بأوامر الله.

أخيراً، يتمثّل السلوك المثالي في التصوّر الإسلامي في التوازن بين هذه السمات على مختلف المستويات: النفسية، والاجتماعية، والفكرية، والعبادية. وإنّ الشخصية السوية هي تلك التي تحقّق التوازن بين جميع هذه السمات.

الفصـل الثالث: الأصول النفسية والأمراض

تصنّف الأصول النفسية إلى سويّ (طبيعي)، وشاذّ (مَرَضِي)؛ حيث يُنظر إلى السلوك الشاذّ في التصوّر الوضعي على أنّه ناتج عن عوامل وراثية، وتكوينية، وبيئية، مع التركيز على تأثيرات التنشئة الاجتماعية والثقافة على تطوّر الشخصية. تؤدّي هذه العوامل إلى استجابة غير سوية تجاه الضغوطات، ما يسبّب الأمراض النفسية. في العلاج، تُستخدم ثلاثة طرق رئيسة في التصوّر الوضعيّ: العلاج التحليلي، والعلاج السلوكي، والعلاج الإرشادي.

في التصوّر الإسلامي، يُنظر إلى الأمراض النفسية بشكل مشابه من حيث العوامل البيئية والوراثية، لكنه يضيف بعدًا عباديًا؛ حيث يرتبط المرض بالمعصية والذنب، ويعالج من خلال التوبة والوعي الروحي. يُعتبر العلاج الإرشادي الأكثر فاعلية في الإسلام؛ حيث يركّز على توجيه الشخص للالتزام بالقيم الدينية لتحسين حالته النفسية. يختلف التصوّر الإسلامي عن الوضعي في ربط الصحة النفسية بالتقوى والعبادة، ما يجعل رؤيته أكثر شمولية؛ إذ يتعامل مع الإنسان من منظور دنيوي وروحي في آن واحد.

تكشف الاختلافات بين النظريات العلاجية والنفسية في علم النفس عن تعارضات كبيرة في تفسير الإنسان، وأمراضه، وعلاجها. في حين يرى بعضهم أنّ علاج الأمراض النفسية يعتمد على التدخّل العضوي، مثل العقاقير أو العمليات الجراحية، يعتقد آخرون أنّ العلاج يجب أن يكون نفسيًّا بحتًا. تؤدّي هذه التفاوتات في الآراء إلى معاناة المرضى الذين يظلّون ضحايا لهذا التباين. ولا تقتصر الاختلافات على المدارس الفكرية، بل تمتدّ داخل المدرسة الواحدة أيضًا؛ حيث يختلف المفكّرون مثل (فرويد-Freud) و(آدلر-Adler) أو (بافلوف-Pavlov) و(سكينر-Skinner) في تفسيرهم للأعماق النفسية، مثل اللا وعي، والذكريات الطفولية. تصبح هذه التفاوتات أكثر وضوحًا عندما نتحدّث عن مبدأ تأجيل اللذة، حيث يواجه الإنسان صعوبة في التكيف مع تأجيل الإشباع دون تعويض مناسب. في السياق الإسلامي، يُنظر إلى أنّ تأجيل اللذّة يجب أنْ يترافق مع تعويض سواء في الدنيا أم الآخرة، بينما يغفل علم النفس الوضعي عن هذا الجانب الروحي. كما أنّ هناك تجاهلاً لفهم الأبعاد الفكرية للإنسان، والتي تتمثّل في فطرة التوحيد، ما يؤدّي إلى تقويم غير دقيق للأمراض النفسية، وتقديم علاجات قاصرة.

الباب الرابع

الفصـل الأول: الأصول النفسية وتنظيمها

يتحدّث في هذا الفصل الكاتب عن الفرق بين التصوّر الإسلامي لعلم النفس وتنظيم الدوافع، مقارنة بالمنهج الوضعي. وفقًا للتصور الإسلامي، فإنّ هناك نوعين من الدوافع: حيويّة ونفسية. يوضّح أيضًا أنّ الإسلام لا يتعامل مع الدوافع النفسية، مثل البحث عن التقدير الاجتماعي أو السيطرة كحاجات مشروعة، بل يعارضها، ويركز على «الحاجة إلى وأد الذات» أو «المسالمة». يرى الباحث الإسلامي أنّ تحقيق توازن الإنسان لا يكون بالتركيز على هذه الدوافع النفسية، بل بتنظيمها بما يتفق مع المبادئ الإسلامية.

من ناحية ثانية، يسلط الضوء على أهمية النية في الإسلام صفتها دافعًا وحافزًا للسلوك. الفارق بين الإسلام والعلم النفسي الوضعي، هو أنّ الإسلام ينظر إلى «النية» وسيلةً لربط كل تصرّف بهدف عبادي (خلافة الله في الأرض)، ما يجعل السلوك ذو معنى عميق، سواء في النجاح أم الفشل. ويؤكّد أيضًا أنّ الانتماء إلى الله هو الطريق الذي يحقّق التوازن الداخلي والصحة النفسية، على عكس الانتماء الاجتماعي، الذي يحاول النظام الوضعي تحقّقه عن طريق العلاقات الإنسانية والمؤسّسات.

هناك فارق بين مفهوم التقدير الاجتماعي في التصوّر الوضعي والإسلامي. ففي التصوّر الأرضي، يُفهم التقدير الاجتماعي على أنّه حاجة للفرد لإثبات ذاته عبر تقدير الآخرين له، سواء كان عبر الحب أم المكافأة. في المقابل، يختلف التصوّر الإسلامي؛ حيث يرفض الاعتراف بالبحث عن التقدير الاجتماعي بوصفه حاجة جوهرية، ويشدّد على أن الحب والمكافأة، يجب أن ينبثقا من سلوك الفرد التوافقي مع الآخرين، لا من رغبة في إشباع الذات.

أُشير -أيضًا- في هذا الفصل إلى مفهوم احترام الذات في التصوّر الإسلامي، ويقارن بين العزّ والذل في هذا السياق. بينما يُعتبر العزّ سمة سوية ترتبط بالاستقلالية النفسية، يُعدّ الذل مرضًا نفسيًا يعكس حالة من النقص والدونية. وفقًا للنهج الإسلامي، لا يرتبط العزّ بالتقدير الاجتماعي، بل بالاتجاه نحو السماء لتحقيق حاجات الفرد، بدلاً من الاعتماد على الآخرين. يميّز الكاتب بين أنماط عدّة من البحث عن العزّ، أبرزها البحث الذي يرتبط بالاحتياج الاجتماعي، والبحث الذي يرتبط بالموقف الفكري، وأخيراً البحث الذي يرتبط بالقيمة الموضوعية للمذهب أو الاتجاه الفكري، وهو نمط سويّ. النمط الذي يعتبره مثاليًا هو البحث عن العزّ من خلال احترام الذات؛ حيث يتجّه الفرد إلى السماء لتحقيق حاجاته، مبتعدًا عن الاعتماد على الآخرين. ويعرض أيضًا مقارنة بين التوصيات الإسلامية وعلم النفس العيادي؛ حيث يعترض على حلول علم النفس الوضعي، التي تتطلّب تقديم التنازلات والاعتماد على الآخرين لتحقيق التوازن النفسي، مشدّدًا على أن التوصية الإسلامية الواقعية توفّر التوازن الداخلي، من خلال التوجه نحو السماء والابتعاد عن الذلّ الاجتماعي.

يتناول الكاتب -أيضًا- ظاهرة السيطرة والتفوّق في سياق الدوافع النفسية، وارتباطها بـالتقدير الاجتماعي من منظور علم النفس والتصوّر الإسلامي. يتحدث عن الحاجة النفسية إلى التفوّق والسيطرة باعتبارهما دافعين رئيسين يرتبطان بالشعور بالحاجة إلى التميّز، أو فرض النفوذ على الآخرين. وقد اختلف علماء النفس في تصنيف هذين الدافعين؛ حيث يرى بعضهم أنهما حاجتان فطريّتان، بينما يعتبرهما آخرون دافعين مكتسبين يتأثران بالثقافة والمجتمع. يضع الإسلام إطارًا خاصًا لهذين الدافعين.

بناءً على هذا، يرى الإسلام أنّ التفوق والعلوّ يجب أن يكونا لأغراض موضوعية، مثل قيادة الأمة نحو الصلاح، وليس لأغراض شخصية أو متعلّقة بتأكيد الذات.

وفق النهج الإسلامي، تُعتبر القيادة ذات دلالة موضوعية أكثر من كونها ذاتية. أي أنّ القيادة ينبغي أن تسعى لتحقيق الصلاح العام، وليست لخدمة المصالح الشخصية. يُستدلّ على ذلك بآيات وأحاديث نبويّة تدعو إلى التواضع وعدم البحث عن التفوّق، إلا في نطاق الخدمة الصادقة للأمة. وفي المقابل، فإنّ الرغبة في الرئاسة أو التفوق، يمكن أن تكون شرًّا إذا كانت مرتبطة بـ الرغبة في السيطرة على الآخرين بدافع الغرور أو الكبرياء.

في علم النفس، يُعتبر الاحساس بالنقص أساسًا لكثير من السلوكيات المَرَضِية، مثل الرغبة في التفوّق والسيطرة. هذا الشعور قد يكون شعوريًا أو لا شعوريًا، ويعود إلى تجارب الطفولة أو تجارب الحياة الشخصية. يعترف الإسلام بوجود هذه المشاعر لكنّه يعرض علاجها من خلال التوبة والتواضع والعودة إلى الله. ويوجّه المشرع الإسلامي الإنسان نحو الوعي الذاتي السليم الذي ينطلق من الكفاءة والقدرة على أداء المَهمّة العبادية بصدق، دون الانشغال الزائد بالمكانة الاجتماعية أو التفوّق على الآخرين.

في التصوّر الإسلامي، يعتمد التقدير الذاتي على أن يكون الشخص واعيًا بذاته بشكل إيجابي وصحيح، ويرتبط هذا التقدير بتحقيق الهدف الإلهي من الحياة، العبادة والعمل الصالح. يحثّ الإسلام على تعزيز ثقة الشخص بنفسه دون الوقوع في فخ الغرور أو التكبر، بل يطلب من

المسلم أن يحسن التقدير الذاتي بناءً على سلامة النفس وتحقيق الأهداف العليا.

والجدير بالذكر أيضًا، أنّ الكاتب يناقش الفروقات بين التصوّر الإسلامي والوضعي لمفاهيم «الإحساس بالنقص»، و«الإحساس بالذنب» في سياق العلاج النفسي. من وجهة نظر علم النفس الوضعي، يُعتبر الإحساس بالنقص نتيجة لتنشئة غير سليمة في الطفولة؛ حيث يعتقد أنّ هذه المشاعر تتفاقم بسبب بيئة اجتماعية قاسية تُركّز على الثواب والعقاب. يُعتمد على مفاهيم التعويض باعتباره حلاًّ، لكنّها تظلّ محدودة الفاعلية، بسبب القيود الفردية والاجتماعية. في المقابل، يقدّم التصور الإسلامي علاجًا مستمرًّا وواقعيًّا لهذه المشاعر، من خلال مبادئ مثل التقوى، والاعتراف بالخطأ، والمكافأة بقدر الطاقة، ما يساهم في محو مشاعر النقص بشكل أكثر فعالية. أما بالنسبة للإحساس بالذنب، فيرى علماء النفس الوضعيون أنّه ناتج عن كبت مشاعر معينة، غالبًا متصلة بالعوامل الجنسية أو الطفولة. بينما يعترف التصور الإسلامي بالذنب باعتباره مفهومًا عباديًّا؛ حيث تتحقّق التوبة والندم بصدق دون الوقوع في دوّامة مَرَضِية أو الشعور بالذنب الزائد. ويشدّد التصور الإسلامي على أهمية الوعي بالذنب باعتباره وسيلة للنمو الروحي، معتبرًا أن العلاج الفعّال ينبع من التربية السليمة، والوعي الروحي، والتوبة.

يشكل الإحساس بالنقص أو الذنب، كما يظهر في سلوك الفرد تجاه نفسه، أحد الأشكال الرئيسة للتقدير السلبي للذات، الذي يمكن أن يكون مَرَضِيًا. يوضّح الكتاب أنّ هناك نوعين من هذا التقدير: أحدهما مَرَضِي، والآخر صحّي؛ حيث تقدّم التصوّرات الوضعية رؤية أُحادية للذات، بحيث يظهر الشخص نفسه على أنه ناقص أو مذنب بشكل مبالغ فيه، مما يشلّ قدرته على مواجهة الحياة بنجاح. قد تؤدي هذه النظرة إلى مشاعر مثل الخجل، والخوف، والذنب الذي يعيق الفرد عن التفاعل الصحيح مع محيطه. يعترف التصور الإسلامي بوجود تقدير سلبي للذات، لكنه يقدمه في سياق صحي يمكن أن يساعد الفرد في تطوير ذاته ضمن إطار العبادة والتفاعل مع الله.

يُدرَس مفهوم الذنب من زاويتين؛ الأولى هي سلوك مَرَضِي يؤدّي إلى تدهور نفسي، والثانية

هي حالة صحية تؤدي إلى التوبة والرجوع إلى الله. يرتبط الإحساس بالذنب، وفق المفهوم الإسلامي، بتوتر نفسي صحي يعكس الوعي الروحي للمؤمن، وهو يدل على قدرة الفرد على الانتباه للأخطاء ومحاولة التوبة عنها. التوبة هنا ليست مجرّد اعتراف بالذنب بل هي عملية نفسية شافية تُعيد التوازن للفرد.

تعتبر الدوافع البشرية محركًا رئيسًا للسلوك البشري، وقد تناولها علماء النفس والأنثروبولوجيا في دراساتهم المختلفة. من بين هذه الدوافع، تبرز الحاجة إلى التملّك، التي لا تقتصر على تلبية احتياجات الإنسان الأساس، بل قد تتجاوز ذلك لتصبح رغبة في الزينة والترف. في التصور الإسلامي، يُنظر إلى التملك باعتباره وسيلة لتحقيق العبادة، ولا يُشجّع على التعلّق الزائد بالمال أو الممتلكات، بل يُشدّد على الزهد فيما لا يحتاجه الفرد، ويُحثّ على إنفاق الفائض في سبيل الله. ووفقًا للآيات القرآنية، فإن المال هو زينة الحياة الدنيا، ويُستخدم أداة لاختبار مدى قدرة الشخص على الحفاظ على توازنه الروحي والعبادي بعيدًا عن الشهوات المفرطة.

كما تشمل الدوافع الأخرى الحاجة إلى «الأمن»، التي تتفرّع إلى الأمن الحيوي (كالطعام والصحة)، والأمن النفسي (كالاستقرار العاطفي والاجتماعي). في التصور الإسلامي، يجري تقديم «الأمن» وسيلة لتحقيق حياة عبادية متوازنة؛ حيث يسعى المسلم إلى تحقيق الأمن النفسي من خلال الالتزام بالقيم الدينية، والابتعاد عن التهديدات النفسية التي قد تعيق ممارسة العبادة. هناك تباين بين التصور الإسلامي والتصور الأرضي في فهم الدوافع البشرية؛ حيث يستعرض الكتاب كيفية التعامل مع الدوافع في السياقين المختلفين.

وفي ختام هذا الفصل، يتناول الكاتب فكرة العدوان والمسالمة من منظورين مختلفين: الوضعي والإسلامي. من وجهة النظر الوضعية، يُعتبر العدوان استجابة فطرية أو مكتسبة نتيجة للإحباط أو التنشئة الاجتماعية. يُصنف العدوان في صور لفظية وجسدية، ويرتبط غالبًا بمشاعر مثل الحقد أو الغيرة. بالمقابل، يقدّم التصور الإسلامي نهجًا مختلفًا؛ حيث يُعتبر العدوان غير فطري، بل سلوكًا يمكن تعديله من خلال التدريب على المسالمة. يشدّد المشرع الإسلامي

على ضرورة تجّنب العدوان وتعزيز الحب والتسامح عبر ممارسات اجتماعية، مثل السلام، والمصافحة، وقضاء الحوائج، ما يعزّز التوازن الداخلي للإنسان ويُحسن علاقاته بالآخرين.

الفصـل الثاني: الدوافع الحيوية وطرائق تنظيمها

يتحدّث الكاتب في هذا الفصل عن الدوافع الحيوية وطرائق تنظيمها، والعلاقة بين الدوافع البيولوجية والنفسية في الإنسان. في هذا السياق، يعرض كيفية تأثير الدوافع الحيوية مثل الطعام والنوم والجنس على السلوك البشري، وكيفية تنظيم هذه الحاجات لتتناسب مع القيم الدينية والخُلُقية. يُظهر أن الإنسان لا يمكنه فصل دوافعه النفسية عن دوافعه البيولوجية، بل إن السلوك الإنساني يتسم بوحدة بين الجانبين، ويتضح ذلك من خلال ممارسات مثل تأجيل إشباع الحاجات، كما في تعليم الطفل تنظيم مواعيد طعامه. وفيما يخص النوم، يُعتبر أحد أبرز الدوافع الحيوية التي تتطلب تنظيمًا دقيقًا؛ إذ إنّ النوم الزائد أو في أوقات غير مناسبة، يمكن أن يؤدّي إلى آثار سلبية على الصحة النفسية والعقلية. أما التصور الإسلامي، يُشدد على ضرورة توازن النوم، حيث يُفضل النوم المبكر وتنظيمه بما يتناسب مع فترات معينة من اليوم، مع التأكيد على أهمية قيام الليل في تعزيز الصحة النفسية. وبشكل عام، تبرز أهمية التنظيم المتوازن للحاجات الحيوية في تحقيق الصحة النفسية والجسدية، مع الأدلة على تأثير ذلك في بناء الشخصية السوية.

أما بالنسبة للحلم، يُعتبر في التصورات النفسية الحديثة فعالية لا شعورية؛ حيث يتكون من أحداث وذكريات قديمة أو حديثة، وتشكّل مادة الحلم مزيجًا من الرغبات والأفكار غير المنطقية في كثير من الأحيان. تتنوع التفسيرات النفسية عن الحلم؛ ففي حين يرى (فرويد) أن الحلم هو تعبير مكبوت عن رغبات الشخصية، يعتبر الاتجاه الشرطي أن الأحلام هي مجرد نتاج تفاعلات فسيولوجية خلال النوم، ولا تحمل أي دلالة منطقية. يرى التصور الإسلامي أن بعض الأحلام، مثل التي تحدث بسبب رغبات النفس أو أفكارها، هي «أضغاث أحلام»، ولا تحمل فاعلية تذكر في تعديل السلوك. أما الأحلام التي تكون إما بشرى من الله أو تحذير من الشيطان، فهي ذات

دلالة وفائدة في تغيير السلوك، لا سيما في جوانب دينية وخُلُقية.

يتناول الكاتب أيضًا الدافع الجنسي، الذي يعد أحد الدوافع البيولوجية الأساس في الكائن البشري. رغم أنه لا يعتبر حاجة أولية كالطعام أو النوم التي لا يمكن تأجيلها، يمكن تأجيل إشباعه دون أن يؤدي إلى تهديد للحياة أو الصحة النفسية، كما هو الحال مع الطعام والنوم. مع ذلك، يعُتبر من أقوى الدوافع الإنسانية في كثير من السياقات الثقافية والدينية، ومنها النصوص الإسلامية التي تشدد على أهمية التحكم فيه بسبب تأثيره الكبير على سلوك الإنسان وتوجهاته. في التصور الإسلامي، يعتبر الجنس وسيلة لتحقيق هدف عبادي هو استمرار النسل البشري، ويتعامل معه وفق مبادئ تنظم الإشباع، وتحدّد طرق التعامل بين الجنسين بشكل يحفظ الصحة النفسية والروحية. بينما يختلف التصور الوضعي؛ حيث يتحقّق قبول بعض الممارسات الاجتماعية التي لا تخلو من تأثيرات سلبية على الصحة النفسية، ولا توفر تنظيمًا شاملاً لهذا الدافع.

فيما يتعلّق بظاهرة الطعام في التصوّر الإسلامي، تتجاوز مجرد التنظيم الطبي إلى ارتباط وثيق بالجانب النفسي والعبادي. فالتوجيهات الإسلامية لا تقتصر على تنظيم تناول الطعام من الناحية الجسدية، بل تشمل أيضًا تأثيره على السوية النفسية والعبادية. ويؤكد الإسلام على أهمية الاعتدال في الطعام، حيث يُفضّل الإشباع بقدر سد الحاجة لتجنب الطغيان النفسي الناتج عن الشبع المفرط. يشير هذا إلى أن الطعام ليس هدفًا بحد ذاته، بل وسيلة لتحقيق توازن في الحياة.

من الناحية العبادية، يُعتبر الشبع المفرط مبغضًا لله تعالى؛ حيث يؤدي إلى غرق الإنسان في رغباته الجسدية، والتوصيات الإسلامية تدعو إلى تنظيم الطعام على نحو يعزز القدرة على التحكم في الشهوات، مثل الصوم والاقتصار على وجبتين في اليوم، ما يسهم في تدريب النفس على التأجيل والصبر.